زوجـــتي

للأستاذ علي الطنطاوي

قال لي صديق ، معروف بجمود الفكر ، وعبادة العادة ، والذعر من كل خروج عليها أو تجديد فيها . قال :

— أتكتب عن زوجك في الرسالة تقول إنها من أعقل النساء وأفضلهن ؟ هل سمعت أن أحدا كتب عن زوجه ؟ إن العرب كانوا يتحاشون التصريح بذكرها ، فيكنون عنها بالشاة أو النعجة استحياء وتعففا ، حتى لقد منع الحياء جريرا من رثاء زوجه صراحة ، وزيارة قبرها جهارا . ومالك بن الريب لما عد من يبكي عليه من النساء قال :

فنهن أمي وابنتاها وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا

فلم يقل وامرأتي .. وكذلك العهد بآبائنا ومشايخ [1] أهلنا .

لم يكن يقول أحد منهم : زوجتي ؛ بل كان يقول : أهل البيت وأم الأولاد ، والجماعة ، والأسرة ، وأمثال هذه الكنايات . أفترغب عن هذا كله ، وتدع مايعرف الناس ، وتأتي ماينكرون ؟

— قلت : نعم !

فكاد يصعق من دهشته مني ، وقال :

— أتقول نعم بعد هذا كله ؟

— قلت : نعم ! مرة ثانية . أكتب عن زوجتي [2] فأين مكان العيب في ذلك ؟ ولماذا يكتب المحب عن الحبيبة [3] وهي زوج بالحرام ، ولا يكتب الزوج عن المرأة وهي حبيبته بالحلال ؟ ولماذا لا أذكر الحق من مزاياها لأرغب الناس في الزواج . والعاشق يصف الباطل من محاسن العشيقة فيحبب المعصية إلى الناس ؟

إن الناس يقرأون كل يوم المقالات والفصول الطوال في مآسي الزواج وشروره ، فلم لا يقرأون مقالة واحدة في نعمه وخيراته ؟

ولست بعد أكتب عن زوجي وحدها ؛ ولكني كما كان هوجو يقول : « إني إذ أصف عواطفي أبا ، أصف عواطف جميع الآباء »

* * *

لم أسمع زوجاً يقول إنه مستريح سعيد ، وإن كان في حقيقته سعيدا مستريحا ، لأن الإنسان خلق كفورا ، لا يدرك حقائق النعم إلا بعد زوالها ؛ ولأنه ركب من الطمع ، فلا يزال كلما أوتي نعمة يطمع في أكثر منها ، فلا يقنع بها ولا يعرف لذتها . لذلك يشكو الأزواج أبدا نساءهم ، ولا يشكر أحدهم المرأة إلا إذا ماتت ، وانقطع حبله منها وأمله فيها ؛ هنالك يذكر حسناتها ، ويعرف فضائلها . أما أنا فإني أقول من الآن — تحدثا بنعم الله وإقرارا بفضله — إني سعيد في زواجي وإني مستريح

وقد أعانني على هذه السعادة أمور يقدر عليها كل راغب في الزواج ، طالب للسعادة فيه ، فلينتفع بتجاربي من لم يجرب مثلها ، وليسمع وصف الطريق من سالكه من لم يسلك بعد هذا الطريق

أولها : أني لم أخطب إلى قوم لا أعرفهم ، ولم أتزوج من ناس لا صلة بيني وبينهم .. فينكشف لي بالمخالطة خلاف ماسمعت عنهم ، وأعرف من سوء دخيلتهم ما كان يستره حسن ظاهرهم ، وإنما تزوجت من أقرباء عرفتهم وعرفوني ، واطلعت على حياتهم

(١) هي مشايخ بالياء ، لا مشائخ كما يكتب بعض المتعالمين

(٢) الزوجة من ألفاظ الفقهاء والفصيح فيها الزوج بلا هاء

(٣) من أسرار الذوق في كلام العرب أنهم لا يستعملون في اسم الفاعل إلا المحب (من الرباعي) ولا يستعملون في اسم المفعول إلا الحبيب . مع أن المحب (بالفتح) والحباب صحيحان . ولكن ما كل صحيح فصيح . فليعلم هذا الذين يظنون الإعراب فصاحة والنحو بيانا

نحن دولة مسلمة ، ولا يمكن أن نتهاون في هذه الحقيقة ولو بذلنا آخر قطرة من دمائنا ، ومن حق الإسلام علينا أن نجهر بالحق لا نخاف في الله لومة لائم ، ومن الحق الذي يجب علينا أن نجهر به اليوم ، هو أن الإسلام لا يقر الملكية الوراثية بحال من الأحوال ، فليتدبر هذا جيدا المسئولون وغير المسئولين

محمد عبد الله السمان

فى بيتهم واطلعوا على حياتى فى بيتى . إذ رب رجل يشهد له الناس بأنه أفكه الناس ، وأنه زينة المجالس ونزهة المجامع ، وهو فى بيته أثقل الثقلاء . ورب سمح هو فى أهله سمج ، وكريم هو فى أسرته بخيل ، يغتر الناس بحلاوة مظهره فيتجرعون مرارة مخبره . .

تزوجت بنتاً أبوها ابن عم أمى لحا ، وهو الأستاذ صلاح الدين الخطيب شيخ القضاء السورى المستشار السابق والكاتب العدل الآن . وأمها بنت المحدث الأكبر ، عالم الشام بالإجماع الشيخ بدر الدين الحسينى رحمه الله . فهى عريقة الأبوين ، موصولة النسب من الجهتين

والثانى : أنى اخترتها من طبقة مثل طبقتنا . فأبوها كان مع أبى فى محكمة النقض ، وهو قاض وأنا قاض ، وأسلوب معيشته قريب من أسلوب معيشتنا ، وهذا هو الركن الوثيق فى صرح السعادة الزوجية ، ومن أجله شرط فقهاء الحنفية (وهم فلاسفة الشرع الإسلامى) الكفاءة بين الزوجين

والثالث : أنى انتقيتها متعلمة تعليما عاديا ، شيئا تستطيع به أن تقرأ وتكتب ، وتمتاز من العاميات الجاهلات ، وقد استطاعت الآن بعد ثلاثة عشر عاما فى صحبتى أن تكون على درجة من الفهم والإدراك ، وتذوق ما تقرأ من الكتب والمجلات ، لا تبلغها المتعلمات ، وأنا أعرفهن وكنت إلى ما قبل سنتين ألقى دروساً فى مدارس البنات ، على طالبات هن على أبواب البكالوريا ، فلا أجدهن أفهم منها ، وإن كن أحفظ لمسائل العلوم ، يحفظن منها مالم تسمع هى باسمه . ولست أنفر الرجال من الزوج بالتعلمات ، ولكنى أقرر — مع الأسف — أن هذا التعليم الفاسد بمناهجه وأوضاعه ، يسىء على الغالب إلى أخلاق الفتاة وطباعها ، ويأخذ منها الكثير من مزاياها وفضائلها ، ولا يعطيها إلا قشورا من العلم لا تنفعها فى حياتها ، ولا تفيدها زوجاً ولا أما . والمرأة مهما بلغت لا تأمل من دهرها أكثر من أن تكون زوجة سعيدة وأما

والرابع : أنى لم أبتغ الجمال وأجمله هو الشرط اللازم الكافى كما يقول علماء الرياضيات لعلمى أن الجمال ظل زائل ؛ لا يذهب جمال الجميلة ، ولكن يذهب شعورك به ، وانتباهك إليه ، لذلك ترى من الأزواج من يترك امرأته الحسناء ويلحق من لسن على حظ من الجمال ، ومن هنا صحت فى شريعة إبليس قاعدة الفرزدق وهو من كبار أئمة الفسوق ، حين قال لزوجه النوار فى القصة المشهورة : ما أطيبك حراما وأبغضك حلالا !

والخامس : أن صلتى بأهل المرأة لم يجاوز إلى الآن ، بعد ثمن قرن من الزمان ، الصلة الرسمية : الود والاحترام المتبادل ، وزيارة النسب ، ولم أجد من أهلها ما يجد الأزواج من الأحماء من التدخل فى شؤونهم ، وفرض الرأى عليهم ، ولقد كنا نرضى ونسخط كما يرضى كل زوجين ويسخطان ، فما دخل أحد منهم يوما فى رضانا ولا سخطنا

ولقد نظرت إلى اليوم فى أكثر من عشرين ألف قضية خلاف زوجى ، وصارت لى خبرة أستطيع أن أؤكد القول معها بأنه لو ترك الزوجان المختلفان ، ولم يدخل بينهما أحد من الأهل ولا من أولاد الحـ...لال ، لانتهت بالمصالحة ثلاثة أرباع قضايا الزواج

والسادس : أننا لم نجعل بداية أيامنا عسلا ، كما يصنع أكثر الأزواج ، ثم يكون باقى العمر حنظلا مرا وسما زعافا ، بل أريتها من أول يوم أسوأ ماعندى ، حتى إذا قبلت مضطرة به ، وصبرت محتسبة عليه ، عدت أريها من حسن خلقى ، فصرنا كلما زادت حياتنا الزوجية يوما زادت سعادتنا قيراطا

والسابع : أنها لم تدخل جهازا ، وقد اشترطت هذا لأنى رأيت أن الجهاز من أوسع أبواب الخلاف بين الأزواج ، فإما أن يستعمله الرجل ويستأثر به فيذوب قلبها خوفا عليه ، أو أن يسرقه ويخفيه ، أو أن تأخذه بحجز احتياطى فى دعوى صورية فتثير بذلك الرجل

والثامن : أنى تركت القيصر لقيصر ، فلم أدخل فى شؤونها من ترتيب الدار وتربية الأولاد ؛ وتركت هى لى ما هو لى ، من الإشراف والتوجيه ، وكثيرا ما يكون سبب الخلاف لبس المرأة عمامة الزوج وأخذها مكانه ، أو لبسه هو خمار المرأة ومشاركتها

الرأى فى طريقة كنس الدار ، وأسلوب تقطيع الباذنجان ، ونمط تفصيل الثوب

والتاسع : أنى لا أكتمها أمرا ولا تكتمنى ، ولا أكذب عليها ولا تكذبنى ، أخبرها بحقيقة وضعى المالى ، وآخذها إلى كل مكان أذهب إليه أو أخبرها به ، وتخبرنى بكل مكان تذهب هى إليه ، وتعود أولادنا الصدق والصراحة ، واستنكار الكذب والاشمئزاز منه

ولست والله أطلب من الإخلاص والعقل والتدبير أكثر مما أجده عندها . فهى من النساء الشرقيات اللائى يعشن للبيت لا لأنفسهن . للرجل والأولاد ، تجوع لنأكل نحن ، وتسهر لننام ، وتتعب لنستريح ، وتفنى لنبقى . هى أول أهل الدار قياما ، وآخرهم مناما ، لا تنى تنظف وتخيط وتسعى وتدبر ، همها إراحتى وإسعادى . إن كنت أكتب ، أو كنت نائما أسكتت الأولاد ، وسكنت الدار ، وأبعدت عنى كل منغص أو مزعج . تحب من أحب ، وتعادى من أعادى . إن حرص النساء على رضا الناس كان حرصها على إرضائى . وإن كان صاحن حلية أو كسوة فإن أكبر مناها أن تكون لنا دار نملكها نستغنى بها عن بيوت الكراء .

تحب أهلى ، ولا تفتأ تنقل إلى كل خير عنهم . إن قصرت فى بر أحد منهم دفعتنى ، وإن نسيت ذكرتنى ، حتى أنى لأشتهى يوماً أن يكون بينها وبين أختى خلاف كالذى يكون فى بيوت الناس ، أتسلى به ، فلا أجد إلا الود والحب ، والإخلاص من الثنتين ، والوفاء من الجانبين . إنها النموذج الكامل للمرأة الشرقية ، التى لا تعرف فى دنياها إلا زوجها وبيتها ، والتى يزهد بعض الشباب فيها ، فيذهبون إلى أوربة أو أميركة ليجيئوا بالعلم فلا يجيئون إلا بورقة فى اليد وامرأة تحت الإبط ، امرأة يحملونها يقطعون بها نصف محيط الأرض أو ثلثه أو ربعه ، ثم لا يكون لها من الجمال ولا من الشرف ولا من الإخلاص ما يجعلها تصلح خادمة للمرأة الشرقية ؛ ولكنه فساد الأذواق ، وفقد العقول ، واستشمار الصغار ، وتقليد الضعيف للقوى . يحسب أحدهم أنه إن تزوج امرأة من أميركا ، وأى امرأة ؟ عاملة فى شباك السينما ، أو فى مكتب الفندق ، فقد صاهر طرمان [1] ، وملك ناطحات السحاب ، وصارت له القنبلة الذرية ، ونقش اسمه على تمثال الحرية . .

* * *

إن نساءنا خير نساء الأرض ، وأوفاهن لزوج ، وأحناهن على ولد ، وأشرفهن نفسا ، وأطهرهن ذيلا ، وأكثرهن طاعة واستثالا وقبولا لكل نصح نافع وتوجيه سديد . وإنى ما ذكرت بعض الحق من مزايا زوجتى إلا لأضرب المثل من نفسى على السعادة التى يلقاها زوج المرأة العربية (وكنت أقول الشامية) المسلمة ، لعل الله يلهم أحدا من عزاب القراء العزم على الزواج فيكون الله قد هدى بى ، بعد أن هدانى !

دمشق — على الطنطاوى

(١) تعريب ترومان

دفاع عن البلاغة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كتاب يعرض قضية البلاغة العربية أجمل معرض ويدافع عنها أبلغ دفاع فيذكر أسباب التنكر للبلاغة ، والعلاقة بين الطبع والصنعة ، وحد البلاغة ، وآلة البلاغة ... الخ

من فصوله المبتكرة : الذوق ، والأسلوب ، والمذهب الكتابى المعاصر وزعماؤه وأتباعه ، ودعاة العامية ، ودعاة الرمزية ، وموقف البلاغة من هؤلاء وأولئك ... الخ

يقع فى ١٩٤ صفحة وثمنه خمسة عشر قرشاً عدا أجرة البريد